أعظم حادث فى حياة روسو :

روسو ومدام دى فرنس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

صدر أخيراً فى باريس كتاب عنوانه « مدام دى فرنس » Mme de Warens ، وهو عنوان لا يثير لأول وهلة كبير اهتمام ؛ ولكننا متى علمنا أن صاحبة هذا الاسم هى المرأة التى كان لها أكبر أثر فى حياة جان جاك روسو الكاتب والفيلسوف الأشهر ، وأنها إذا لم تكن معروفة شهيرة لذاتها فان روسو يخلدها فى آثاره ، ويفردها فى « اعترافاته » أوترجمة حياته أكبر مكانة ، استطعنا أن نقدر أهمية بحث يتناول هذا الجانب من حياة روسو ، وما كان لهمن عظيم أثر فى تكوين تفكيره وفلسفته .

نلمس أثر المرأة فى حياة كثير من عظماء الرجال ، وتمتاز هذه الشخصيات النسوية فى أغلب الأحيان بخلال قوية بارزة تمكن لها فى النفوذ والتأثير ؛ ولكن مدام دى فرنس تبدو لنا فى صورتها وخلالها شخصية عادية ، لا تخلق فى ذاتها لأن توحى بشىء من مقومات العظمة أو البطولة ؛ وكان مثولها فى حياة روسو أيام كان فتى مغموراً شريداً لا قيمة له فى مجتمع وطنه وعصره . على أن هذه الصلة طبعت نفس روسو وروحه بأعمق طابع ، وأثرت فى عواطفه وتفكيره أعظم تأثير ، وأثارت من قلمه عن مدام دى فرنس وعن صلاته بها تلك الصحف المؤثرة البديعة التى نعتقد أنها أجمل ما فى « الاعترافات » .

كانت لروسو مع مدام دى فرنس قصة من أغرب القصص وأجملها ؛ قصة « أم » وولد ، ومربية وتلميذ ، وحامية ومحبوب ، وأخيراً قصة عشق ومعشوق ، وصاحب وخليلة ؛ وكان اتصاله بها سنة ١٧٢٨ وهو حدث فى نحو السادسة عشرة من عمره ؛ ففى ذلك الحين فر روسو من جنيف مسقط رأسه ، وغادر أسرته بعد أن التحق حين كان صبيا بمكتب محام ولم يأنس ميلا للعمل فيه ، ثم بحانوت حفار لم يطق خشونته وسوء معاملته ؛ وسافر على غير هدى إلى بلدة كنفنيون من أعمال سافوا ، وقصد قسيسها السيو دى بونفير وكانت بينه وبين أسرته صداقة ، فأرسله بتوصية منه إلى سيدة خيرة محسنة هى مدام دى فرنس ، لكى تعاونه على البحث عن عمل يعيش منه .

وكانت مدام دى فرنس تقيم يومئذ فى بلدة « انسى » ؛ فقصد إليها الفتى جان جاك ، وقلبه يتردد بين الخيبة والأمل . ويقول لنا روسو إنه لما وصل إلى «أنسى» فكر فى وسيلة مؤثرة يكسب بها عطف مدام دى فرنس ، فكتب إليها خطابا منمقا ضمنه كل ماوسع من الكلمات والعبارات البليغة ، ووضع معه خطاب السيو دى بونفير . ثم ذهب إلى منزلها فلم يجدها هنالك ، وقيل له إنها سارت توا إلى الكنيسة على مقربة من المنزل ، فهرول فى أثرها ولحق بها وناداها . ثم يقول : « وانى لأذكر هذه البقعة بلاريب . وكثيراً مابللتها بعد بدموعى وغمرتها بقبلاتى . وانى لأود أن أسور هذه البقعة السعيدة بقضيب من الذهب ، وأود أن ألتمس لها إجلال العالم . ومن يقدس آثار انقاذ الانسان فعليه أن لا يقربها إلا راكعا » . وشد ما كانت دهشة روسو حينما رأى مدام دى فرنس لأول مرة ، وكان يتصورها تانسا مظلمة الحياشديدة الورع ، وما كانت المحسنة التى يختارها القس دى بونفير لتكون فى نظره غير ذلك . ولكنه رأى بالعكس محيا يفيض بالسحر ، وعينين زرقاوين نجلاوين تفيضان بالرقة ، وبشرة ناصعة باهرة . فاستقبلته باسمة وتناولت الخطابين وقرأتهما . ثم طلبت إليه برفق أن ينتظرها فى المنزل حتى تعود من القداس .

وهنا يحدثنا روسو طويلا عن مدام دى فرنس ؛ فهى لويز الينور دى فرنس سليلة أسرة نبيلة من لوزان ؛ تزوجت صغيرة بالسيو دى فرنس ؛ وكان الزواج عقيما ، ولم يكن سعيداً ؛ فعافت حياة الأسرة ؛ وانتهزت فرصة وجود الملك فكتور أمديه (ملك سافوا) ذات يوم فى أنيان ، فغادرت أسرتها ووطنها واستغاثت به ، فمنحها حمايته ورعايته ورتب لها نفقة حسنة . ثم ذاع بعد ذلك انه يهواها ، فأبعدها إلى « أنسى » ، وهنالك نبذت مذهبها البروتستانتى واعتنقت الكثلكة إرضاء لمليكها وكان كاثوليكيا متعصبا . وكان قد مضى عليها ستة أعوام فى أنسى يوم وفد عليها روسو ؛ وكانت يومئذ فى الثامنة والعشرين من عمرها . وكانت حسناء « جمالها من ذلك النوع الباقى الذى يبدو فى المحيا أكثر مما يبدو فى التقاسيم ، هذا إلى أن جمالها كان مايزال فى ذروته الأولى ؛ وكانت ذات هيئة ناعمة

جذابة ، ونظرة ساحرة ، وبسمة ملائكية . وكانت صغيرة القد ، أميل إلى القصر ، عبلة نوعا ولكن دون فبح ؛ بيد أنه لم يلث أجل منها رأساً ، ولا أجل صدراً وبدين ومعصمين » .

وقد تلقت مدام دى قرنس تربية مضطربة متنوعة ترجع إلى أنها فقدت أمها عند مولدها ، فتعلمت شيئا من مربيتها ، وشيئا من والدها ، وشيئا من أساتذتها ، وكثيراً من عشاقها . وتلقت بالأخص عن والدها قشوراً من الطب والسمياء ، وكان للأفاقين من الأطباء والسميائيين نفوذ كبير عليها ، فكانت تقدمهم فى عمل المركبات والأدوية ، وتبدد فى ذلك ذكاءها وسحرها اللذين كانا يخلقان بأرفع المجتمعات . بيد أنها لبثت خلال هذه الغمار محتفظة بطيبة قلبها ، ورقة شمائلها ، ويشرها وصراحتها ، وحبها للبائس والمسكين ، وكان جديراً بذكائها ورفيع خلالها أن تشغل مكانة غير التى وجدت فيها ، وأن تؤدى عملا أجل من ذلك الذى كانت تؤديه .

ولقى روسو مدام دى قرنس « فغرت لبه وحازت ثقته من أول مقابلة وأول كلمة وأول نظرة » . ولا يستطيع روسو أن يدرك كنه هذه العاطفة العميقة التى بثتها إليه مدام دى قرنس منذ الساعة الأولى ، ويتساءل إذا كانت هذه العاطفة حبا ، فكيف اقترنت منذ البداية بسلام القلب ، والسكينة ، والبشر ، والثقة ؟ وكيف أنه وهو فى حضرة امرأة رفيعة رائعة الحسن ، يتوقف عليها مصير مستقبله فى معنى من المعانى ، استطاع أن يشعر بمنتهى الحرية والطمأنينة ، ولم يخالجه أى اضطراب أو وجل ؟ هذا وهو الحدث الحيي الذى لا يعرف شيئاً عن العالم .

وسألته عن أحواله ورغباته ، فقص عليها قصته ، وبعد أن فكرت ملياً فى أمره ولم تجد له حلا موافقاً ، اقترح أحد ضيوف المنزل على مضيفته أن يسافر الفتى الشريد الى تورينو ليلتحق هنالك بمعهد لتخريج الكهنة ، وفيه يلقى العون المادى والروحى ، فوافقت مدام دى قرنس لأنها لم تجد حلاً آخر ، وساعدت روسو ببعض المال ، فسافر الى تورينو بعد أن أقام لديها بضعة أيام أمرته فيها بساحر خلالها وبثت اليه شعوراً خالداً بالمحبة والعرفان ؛ وهنالك قدم أوراق التوصية التى يحملها . وكان المعهد معهد تبشير للكثلكة ، فلم يمض حين حتى حمل روسو على تغيير مذهبه البروتستانتى واعتناق الكثلكة ، ثم أخرج على أثر ذلك من المعهد ونفح بمكافأة صغيرة فلبث حيناً يتجول فى المدينة ، وينتقل من مسكن الى آخر ، وهو شريد لا يدرى ماذا يصنع ، حتى ألقى به القدر الى خدمة سيدة نبيلة تدعى الكونته دى ڤرتشلى . وكانت أرمل متقدمة السن ولا ولد لها ، وكانت أديبة قارئة ، فكان روسو يكتب ما عليه من القطع والخطابات ؛ ولكنها لم تلبث طويلاً حتى مرضت ثم توفيت ؛ وغادر روسو المنزل آسفاً شريداً ؛ حتى سنحت له فرصة أخرى ؛ فألحق بتوصية من بعض الأصدقاء بخدمة الكونت دى جوڤون أحد رجال البطانة ، وتعرف عندئذ بالأب دى جوڤون أحد أعضاء هذه الأسرة ، وتلقى عليه دروساً فى اللاتينية والأدب القديم ، ولبث فى عمله الجديد أشهراً أخرى ، ثم أقيل منه فخرج خالى الوفاض مهموم النفس وكره البقاء فى تورينو ، واعتزم العودة الى أنسى والى مدام دى قرنس .

فغادر تورينو على قدميه ، ووصل الى أنسى بعد رحلة شاقة ، وقصد الى منزل المحسنة اليه ؛ وآنس فى الحال منها ذلك العطف القديم ، فارتمى على قدميها وهو يلثم يدها فرحاً ، وفاض قلبه سعادة إذ علم أنها أعدت له غرفة بالمنزل وأنه سيقيم الى جانبها باستمرار . وهنا يفيض روسو فى وصف عواطفه نحو هذه السيدة البارة الساحرة ، فيقول لنا إن علائقهما لم تثر منذ الساعة الأولى أية كلفة ، فكانت تسميه « ولدها الصغير » ويسميها « أمه » وأن هذه التسمية كانت أصدق معبر عن بساطة هذه العلائق وسذاجتها ، وبالأخص عن تجاذب قلبيهما ، وان الشهوة الجنسية كانت بعيدة عن ذهنه ، ولكنه كان سعيداً إذ وجد « أماً » فتية حسناء تغمره مداعباتها وقبلاتها — أجل قبلاتها — سحراً ، وانه كان يشعر الى جانبها ولدى نظراتها وأحاديثها بمتعة خالدة لا يستطيع أن يدرك كنهها ، يقول روسو : « كان يأخذنى سحر المقام معها ، ورغبتى المضطرمة فى أن أقضى حياتى الى جانبها ، فكنت أرى فيها دائماً ، أكانت غائبة أم حاضرة ، أماً رؤوماً ، وأختا محبوبة ، وصديقا ممتعاً ، ليس غير ؛ وكانت صورتها التى لا تفارق قلبى قط لا تفسح مجالاً لأية صورة أخرى ، فلم أكد أرى فى العالم امرأة سواها ، وكانت عذوبة المشاعر التى تبثها الى تمنع حواسى من أن تنتبه الى مشاعر أخرى ، وتحميني منها ومن جنسها كله ، وبعبارة أخرى كنت عفيفاً لأنى أحببتها ، فتأمل هذه النتائج التى لا أكاد أحسن عرضها ، وقل لى من ذا الذى يستطيع أن يصف طبيعة شغفى بها . . . »

« البقية فى العدد القادم »

محمد عبد الله عنان
المحامى